حقيقة السومريين بين النفي والإثبات

الدكتور محمد فهد حسين
جامعة واسط، كلية الآداب

سنعمد في هذا البحث إلى مناقشة احد الآراء، التي تنفي وجود شعب باسم السومريين على وفق منهجية علم التاريخ القديم، وصولاً إلى ما نظن أنها الحقيقة العلمية، مع اهتمام بنقطة جوهرية، هي إننا نناقش الآراء، بعيداً عن الشخص صاحب الرأي، أي إننا ننظر إلى ما يقال، لا إلى من يقول، وعليه سنبدأ البحث بإيجاز الرأي الذي ينفي وجود السومريين ويذكر إن السومريين لم يعرفوا كشعب، وان اللغة السومرية التي وصلت إلينا هي لغة من اختراع الأكديين أنفسهم. وستكون منهجية البحث، إيراد النقطة ثم تدوين بعض الملاحظات عليها، من خلال الفقرات التالية:

أولا. يرد في بداية الآراء التي تنفي وجود السومريين كقوم ما نصه: "لم تكن الصراعات بين المجموعات البشرية المختلفة في بلاد العراق القديمة على أساس الخلافات القومية وإنما على أساس الخلافات السياسية الاقليمية"[1].

وملاحظتنا ترى أنه:

- لا يمكن الجزم أننا وجدنا كل النتاج الكتابي للعراق القديم، أو أننا قرأنا هذا النتاج كله، أو اكتشفنا كافة المواقع وبضمنها العاصمة (اكد)، حتى يمكن القطع في هذه النقطة. وهنالك نص أدبي يعرف بأسطورة (مارتو)، ورد فيها حديث الكاتب السومري حول الامورريين، وهم من الأقوام الجزرية، الذين ينتمي الاكديون لهم، يمكن أن نستشف منه حالة التمايز العرقي، والفروق الثقافية بينهم وبين السومريين، إذ يرد:

"المارتو الذين لا يعرفون الحبوب

المارتو الذين لا يعرفون البيت ولا المدنية

أجلاف الجبال"[2].

فالنص يتحدث عن فروق اجتماعية، وحضارية، وليست قومية، ولكن عندما نضم هذا النص إلى نص مسماري آخر، يتحدث بنوع من التشفي والانتقام لمصير مدينة أكد بعد سقوطها على يد الكوتيين، إذ يرد:

"يا اكاده عسى ان تفارقك أقوياؤك قوتهم فيحل بهم الوهن، وان يهلك القحط والجوع اهلك"[3].

فإذا سلمنا بنظرية انه لا يوجد شعب سومري، وان اللغة السومرية هي اختراع اكدي، فكيف نفسر حالة التشفي والانتقام بمصير اكد؟ ومن هو كاتب هذا النص؟ ولأي منظومة سكانية او حضاريه ينتمي، حتى يكتب حول اكد والأكديين بهذا الأسلوب الذي يدل على أمضى حالات العداء والتشفي، بعد قيام الملك الأكدي (نرام ـ سين) بتدمير أقدس معبد في مدينة (نفر) هو معبد الإله (أنليل) المسمى (أي ـ كور)[4]. وهو عمل لم يجرؤ على القيام به أي ملك في العراق القديم، لما لمدينة نفر وإلهها انليل من قدسية كبيرة. وجاء النص المسماري المليء بالتشفي للمصير المؤلم على يد الأكديين، ليبين بكل وضوح أن كاتب هذا النص يمتاز تماما عن الأكديين، إذ يرد:

"يا أنليل البطل عسى أن يكون مصير المدينة التي أحلت الدمار بمدينتك مثلها إلى الدمار وعسى أن تمتلئ الآبار بجماجم أهلها"[5].

ويرد على هذا الاستنتاج، أن الكاتب لم يذكر بتشفيه اسم المدينة، ولم يذكر اسم القوم بالصورة الآتية: "عسى ان يكون مصير الأكديين...". لكن السبب هو ان النظام السياسي في العراق القديم كان مبنياً على أساس دولة المدينة، وكان نظاماً زراعياً مستقراً تفككت فيه عرى العلاقات والقرابات بين الأقوام، لحساب مصالح مدنهم من ارض زراعية وقنوات ري ونظم زراعية سائدة.

يمكن الاستمرار بتبيان الأدلة التي تؤكد وجود قومين متمايزين، هما السومريين والاكديين في العراق القديم من خلال الآتي:

أ. الفخار: يوجد في العراق القديم إبان (الألف الثالث قبل الميلاد) نمطان متمايزان من الفخار، فقد تميز الفخار في عصور فجر السلالات كونه متعدد الألوان، ومرسومة عليه أشكال متعددة منها: الأشكال الهندسية كالمثلثات ورسوم السنابل وسعف النخيل[6]. وهو يدل على أن الذين قاموا بصناعته أقوام كانت بيئتهم ونشاطهم زراعيين. وفي أخريات (الألف الثالث قبل الميلاد) وتحديداً العصر الأكدي وجد فخار تميز بصورة عامة بأنه خال من أية إضافات، أو نقوش، ومطلي بطبقة خفيفة من الطين السائل الخفيف، وهذا النوع من الفخار، يدل على أن الذين قاموا

بصناعته أقوام كانت تركز على الضروريات من الحياة دون الالتفات للكماليات منها، على الضد من نوع الفخار الأول، الذي كان مزينا مزخرفا. وربما يكون الاختلاف في الفخار يدل على اختلاف الطرز الفنية، وليس بالضرورة دليل على اختلاف الأقوام التي صنعته. لكن بماذا نفسر عملية الانقلاب في صناعة الفخار واختلافه بين بداية (الألف الثالث قبل الميلاد) ونهايته، وهو اختلاف جاء معكوساً، وخلافاً لحتمية التطور في مسيرة الأحداث التاريخية، فبينما كان الفخار متقنا ومزخرفاً ومرسوماً عليه أشكال ومناظر، فانه يتراجع فيما بعد إلى فخار بسيط خال من أية رسوم. وهذا يدل على وجود منظومتين سكانيتين مختلفتين: الأولى: منظومة زراعية مستقرة، والأخرى: منظومة بدوية مرتحلة. تتمثل الأولى بالسومريين، والثانية بالأكديين. فلو نفينا وجود السومريين، فبماذا نفسر الاختلاف في صناعة الفخار هذه. وما يعزز ذلك أن الفخار ومع مجيء سلالة أور الثالثة للحكم (2112 - 2004 ق.م) بدأ يصبح اصغر حجماً و أكثر دقة منه في الحقب السابقة[7].

إذن لو كان الاختلاف في الفخار يعود إلى اختلاف الطرز الفنية، فبماذا نفسر التحول السريع في نوعية الفخار مع استلام السومريين للحكم مرة أخرى زمن سلالة أور الثالثة، وتميزه عن فخار الدولة الأكدية؟

ب. الأختام : تميزت أختام عصور فجر السلالات، أنها تحوي الأسلوب ألزخرفي المعتمد على المبدأ الخيالي والخطوط الزخرفية[8]، فضلا عن مشاهد الولائم والحفلات الموسيقية المقامة[9]. بينما تميزت الأختام الأكدية ان المشاهد المنحوتة عليها تنحو نحو الواقعية في مواضيعها. وهذا يقودنا إلى الاستنتاج السابق نفسه، لأننا أمام منظومتين سكانيتين مختلفتين: الأولى زراعيه مستقرة، والثانية بدوية مرتحلة، كما يدل على وجود قومين مختلفين أنتجا هذا الاختلاف. فلو سلمنا بصحة الفرضية التي تقول أن الأكديين قاموا باختراع الكتابة السومرية لتدوين اللغة الأكدية[11]، فبماذا نفسر اختلاف الطرز الفنية للفخار والأختام ؟ وبماذا نفسر تباين الموضوعات المرسومة على الفخار والأختام للقوم نفسهم؟ هذا التباين كما نرى لا يحل إشكاله سوى التسليم بوجود قومين مختلفين هما السومريين والأكديين.

ثانياً. يقول الرأي الثاني حول نفي وجود السومريين: "إن الصراعات والحروب المذكورة في النصوص المسمارية لم تكن ولا حتى في حالة واحدة بين السومريين الأكديين باعتبارهم يمثلون قومين مختلفين، وإنما كانت بين مدينة وأخرى أو بين دولة مدينة وأخرى دون أن يكون لذلك علاقة بالانتماء القومي لسكان أي من المدينتين"[12].

لكن بماذا يفسر الباحث، الحروب التي شنها سرجون الأكدي على المدن السومرية، وأكملها حفيده (نرام ـ سين)، الذي وصل في حروبه إلى مستويات من استهداف أقدس معتقدات السومريين، من خلال نهب مدينة (نفر) وحرق معبدها (ايكور). وهي حالة نادرة فلم يكن حرق المعابد وانتهاك حرمتها معروفا على نطاق واسع في حروب دويلات المدن إلا مع الأقوام الأجنبية، كما حصل من الحيثيين عندما قاموا بتدمير بابل ونهبها، وأخذهم تماثيل (مردوخ) وزوجته الإلهة (سربانتيم) (1515 ق.م)[13]، أو كما حصل مع العيلاميين عندما أسروا الإله (مردوخ) بعد غزوهم مدينة بابل نحو (1157 ق.م) زمن ملكهم (شيلاك ـ انشوشناك) ولم تسلم من التدنيس والتخريب حتى الأماكن المقدسة. وأخذوا معهم تمثال (مردوخ)[14]. بينما نلاحظ أن الحروب بين دويلات المدن كانت في الأعم الأغلب حروب على الموارد الزراعية سواء الأرض أو مصادر الإرواء، أو طرق التجارة، دون التعرض للأمور الدينية، كالمعابد وتماثيل الآلهة. لكن مع (نرام ـ سين) حصل تطور خطير من استهداف الرموز الدينية كالمعابد، لذلك من حقنا أن نستنتج أن الأكديين ميزوا في معاملتهم بين المدن في العراق القديم، إذ اتبعوا سياسة الشدة وهدم الأسوار، وأخذ الرهائن من المدن السومرية، لضمان ولاء حكام المدن. وفي الوقت نفسه احتكر (سرجون الأكدي) المناصب الإدارية العليا لموظفي أكد فقط[15]، ما يدل على عدم ثقة بالسومريين سكان جنوب العراق القديم.

ثالثاً. الرأي الثالث الذي يرده الباحث حول نفي وجود السومريين ما ملخصه: "لا يمكن أن نلمس جود اختلافات عرقيه اوأنثروبولوجية متميزة للسومريين، وفصلهم عن الأكديين[16].

والواقع انه لا يمكن الجزم مطلقاً بوجد عرق خالص، لضرورة الاختلاط والتزاوج لاسيما في العراق القديم، الذي مثل بوتقة انصهرت فيها العديد من الأقوام بدءاً من العصر الحجري الحديث، وصولاً إلى الأقوام الوافدة كالأقوام، الجزرية بأقدم هجراتها في (الألف الخامس قبل الميلاد)، مروراً بالعيلاميين والكوتيين والاموريين، وحتى إن وجد تمايز عرقي، فهو يعود بالضرورة إلى حقب سحيقة بالقدم تصل إلى (الإلف السادس قبل الميلاد) لكننا لم نستطع التوصل لها إلى الآن، وقد تساعد التنقيبات الأثرية لمواقع تعود لهذه الحقب للوصول إلى نتائج مقنعة، أما الآن فلا يمكن الجزم بذلك. و(عدم الوجود لا يدل على عدم الوجدان).

أ. يمكن القول وكتسلسل منطقي للأحداث في تكوين السهل الرسوبي والأقوام القاطنة فيه: انه بعد ان اكتمل تشكيله نحو (الألف السادس قبل الميلاد)، إذ تمثل مدينة اريدو أقدم استيطان فيه[17].

ب. نزحت الأقوام إلى السهل الرسوبي من منطقتين: الأولى من الشمال، وهي أقوام العصر الحجري الحديث، ويمكن أن يكون السومريون من ضمنهم. أما الأقوام الجزرية فقد نزحت إليه من الجنوب والغرب، وبالتالي فقد حصلت حالة من الانصهار العرقي والثقافي بين الأقوام المختلفة سواء كانوا من الفراتيين الأوائل والسومريين والجزريين بموجاتهم الأولى منذ (الألف الخامس قبل الميلاد) وصعوداً. وهذا يفسر عدم وجود فوارق عرقيه (سلالية) وانثربولوجية في الهياكل العظمية المكتشفة بعد (الألف الثالث قبل الميلاد)، وبالتالي لا يمكن أن نعد ذلك دليلا حاسما على عدم وجود السومريين. وربما عند اكتشاف هياكل عظمية تعود إلى (الألف السادس والخامس والرابع قبل الميلاد) سيحل بعض من هذه الفوارق.

ومن خلال المنطلق نفسه يمكن أن نناقش الرأي الرابع الذي يستند في نفيه لوجود السومريين إلى أن الملك الأول في جدول الإثبات السومري الذي حكم في (أريدو) قبل الطوفان كان اسمه (الولم) وهو اسم أكدي[18].

وهنا يمكن القول انه لا يمنع أن الأقوام الجزرية والسومرية والفراتيين الأوائل انصهروا في بوتقه واحده خلال الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد. وبالتالي فمن غير المستبعد أن اسم هذا الملك يحمل أكثر من فرضية:

- إما أن الاسم كان لشخص سومري، وبفعل التأثر بالجزريين سمي بهذا الاسم، وقد وجدت لذلك حالات مسجله في العراق القديم مثل تسمية الملوك الثلاثة الأواخر لسلالة اور الثالثة بأسماء جزرية وهم:(امار- سين) و (شو- سين) و (وابي - سين)[19].
- أو أن يكون اسماً لملك جزري حكم في محيطه المتعدد من الفراتيين الأوائل والسومريين والجزريين، وهذا غير مستبعد نظرا لطبيعة الانصهار القومي بين الأجناس البشرية التي نزحت إلى السهل الرسوبي، لاسيما بعد اكتمال تشكله في الألف السادس قبل الميلاد.

وفي كلا الحالين، فهذا لا يعد دليلاً على نفي وجود السومريين كقوم وجدوا في العراق القديم.

رابعاً. من الأدلة على نفي وجود السومريين إن جل أسماء المدن والمواقع في العراق القديم ليست سومريه[20]، بل تعود إلى أقوام يسمون الفراتيون الأوائل، وهذا الرأي لا يصلح دليلا على نفي وجود السومريين، لأن السهل الرسوبي، بعد اكتمال تشكله سكنته أقوام، يعرفون بالفراتيين الأوائل بحسب رأي الأستاذ (لاندزبرجر)، الذين سبقوا السومريين والأكديين في سكنى السهل الرسوبي[21]. وهذا لا يمنع أنهم سكنوا فيه، ثم جاء إليهم السومريون، او أنهم

نزحوا من الجزء الشمالي من العراق القديم. وبالتالي فلا يعد هذا دليلاً على نفي وجود السومريين.

خامساً. من الآراء التي تنفي وجود السومريين، وجود أسماء أعلام أكديه في مدن يفترض أنها سومرية. مثال ذلك أن من بين (22) ملكا حكموا سلالة كيش بعد الطوفان[22]، فان أسماء الملوك السومريين هي (6) فقط. وسببه على ما يتضح حالة الانصهار السومري الجزري منذ الألف الرابع قبل الميلاد الذي لم يجعل فوارق واضحة بين القومين، حتى أنهم تسموا بأسماء سومرية او أكدية وهذا نجد مصاديقه في تاريخ العراق القديم. فمثلاً ورد ان (كودر ـ مابوك) وهو قائد عيلامي قام باحتلال مدينة (لارسا) ونصب احد أولاده ملكاً عليها وهو (ورد ـ سين) الذي يعني بالأكدية (خادم سن)، ثم نصب ابنه الثاني المسمى (ريم ـ سن) (ثور سن)[23] حاكماً على لارسا أيضا، وذلك في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد. فهل يجوز لنا القول على وفق الرأي المتقدم، ان أبناء (كودر مابوك) ليسا عيلاميين، بسبب أن أسماءهم أكدية؟ فمسألة الأسماء لا تدل على هوية الشخص، بل أن ملوكا سومريين سمّوا أولادهم بأسماء جزرية كما مر سابقاً في أسماء (شو ـ سن) و (أبي ـ سن) ضمن سلالة أور الثالثة.

سادساً. ورد:

> "أن جل معلوماتنا عن ملوك عصر فجر السلالات، الذين يفترض كونهم سومريين تأتي من خلال نصوص ملاحم الفت باللغة السومرية في العصر البابلي، وليس في العصور السومرية المفترضة"[24].

وهنا يمكن طرح الأفكار الآتية:

أ. ليس دليلاً قاطعا أن يكون عدم وجود نصوص ملاحم الفت باللغة السومرية تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، على عدم وجود قوم باسم السومريين، فربما سبب عدم وجود مثل هذه النصوص، قلة المدونات، وصعوبة التدوين بالطريقة الصورية، أو عدم عثور المنقبين على هذه الملاحم، أو تعرضها للتلف بسبب المدة الزمنية الطويلة التي تفصلنا عنها.

ب. بدأت الكتابة المسمارية بصورة عامة بالطريقة الصورية التي تتطلب رسم صور الأشياء محاكيا شكلها الطبيعي ولوصفها الحقيقي أيضا[24]. وهذه الطريقة لم تستمر بعد أن تغير أسلوب كتابة هذه الصور، إذ وجد الكتبة انه من الأسهل تدوير الصور لتصبح مقلوبة على ظهورها، واستمرت هذه الطريقة حتى (2500 ق.م)[25]. وبالتالي يمكن الاستنتاج إن طريقة الكتابة المسمارية كانت من الصعوبة كي تدون بها نصوص ملحميه طويلة، لكن بعد تطور الكتابة

المسمارية نحو الطريقتين الرمزية والمقطعية تمكن الكتبة من تدوين الملاحم والأساطير السومرية التي تحوي أسماء ملوك عصر فجر السلالات نحو الألف الثاني قبل الميلاد، فالإشكال في ذلك إذن عدم كفاءة نظام الكتابة المسمارية، وعدم ملاءمته لتدوين نصوص سومريه طويلة، وليس عدم وجود السومريين.

سابعاً. كما ورد، أن الكتابة في مراحلها الأولى لم تكن محدده بالمنطقة المفترضة في جنوبي العراق، إنما انتشرت في ما يعرف بالمنطقة الأكدية أثناء العصر الشبيه بالكتابي. وقد سبق أن ذكرنا أن السهل الرسوبي بصورة خاصة والعراق القديم عموما عرف انصهار أكثر من قوم في بوتقة واحدة، وقد خدم ذلك نظام الكتابة المسمارية، وبغض النظر عمن اوجد هذا النظام سواء كانوا الفراتيون الأوائل أو السومريون، وبالتالي فلا يمكن أن يكون ذلك دليلاً على عدم وجود السومريين، علماً أن صاحب الرأي نفسه يؤكد: "أن الأكديين قاموا باقتباس الخط المسماري الذي ابتكره السومريون لتدوين النصوص الأكدية"[26]. وهنا يعترف بوجود السومريين كقوم ،ولو سلمنا أن وجود كتابات مسمارية في مراحل مبكرة في مناطق خارج بلاد سومر، يدل على عدم وجود أقوام سومريه، بل وجود كتابه سومرية، فالأحرى أن ننسب الخط المسماري واختراعه إلى العيلاميين أيضا، لان أقدم أنواع الكتابة وهي الكتابة الصورية، انتقلت إلى مدينة شوشه عاصمة عيلام، التي ظهر فيها خط صوري مشابه للخط العراقي القديم مع اختلافات بسيطة، في مدة مبكرة جداً بعد نحو (200عام) من اختراعه في العراق القديم[27].

ثامناً. من الأدلة التي وردت حول نفي وجود السومريين:

> "إن الدراسة المعجمية للغة السومرية تبين وجود مجموعتين من المفردات، الأولى تشمل مفردات سومرية، والثانية تشمل عدداً كبيرا من الكلمات المستعارة من لغة غير سومريه"[28].

ونتساءل هنا: هل يمكن أن ننفي وجود الأقوام بسبب وجود مفردات لغة أخرى في كتاباتهم؟ فوجود مجاميع من المفردات الدخيلة في أي لغة لا يعني عدم وجود أهل هذه اللغة، وإذا كان كذلك، فماذا يدلل وجود مجموعة المفردات السومرية. على أن كل لغات العالم تتضمن المفردات الدخيلة كما لا يخفى بسبب الاختلاط والتفاعل[29]، ومثال على ذلك ما مبين في الجدول أدناه:

French	Greek and Latin

Commence	intiate
Finish	conclude
royal	regal
age	Epach

ثامناً. ورد: أن اختلاف المقاطع الرمزية السومرية، التي كانت تستعمل للمعاني نفسها من منطقة لأخرى في جنوب العراق القديم، يمكن أن يكون دليلا على نفي وجود السومريين، فمثلاً الفعل ضرب كان يعبر عنه في المناطق الجنوبية بالمقطعين الرمزيين (أي - خول) (E.HUL). لكن يعبر عنه في المناطق الشمالية منه بالمقاطع الرمزية (ساك - كش) (SAG – GIS.R)[30].

وهذا ليس دليلاً حتمياً على نفي وجود السومريين، فمن الوارد أن يتأثر السومريون بحسب المناطق التي يسكنونها بمن جاورهم من الأقوام، ما أدى إلى الاختلاف في كتابة صيغ هذه الأفعال، فالمناطق الجنوبية من جنوب العراق القديم محاددة للعيلاميين، والشمالية من نفس الجزء تكثر فيها الأقوام الجزرية.

تاسعاً. ورد: أن هناك تأثير أكدي على الكتابات السومرية[31]. وهو أمر غير مستبعد نظراً لمجاورة السومريين للأقوام الجزرية بضمنها الأكديين منذ مدة طويلة في السهل الرسوبي، ما أدى إلى هذا التأثير، ولا يمكن أن يعد ذلك دليلاً على عدم وجود السومريين.

عاشراً. ورد: أن اللغة السومرية وضعها الأكديون قبل أن يتمكنوا من ابتكار وسيلة لتدوين اللغة الأكدية نفسها[32].

هنا يتبادر سؤال: ما هو الأصعب، تدوين اللغة الأكدية، على الرغم من صعوبة تدوينها، أم اختراع لغة جديدة قائمة بذاتها ثم تدوينها؟ هنا لا يسع الباحث إلا القول إن هذا الرأي هو ليس سوى وجهة نظر خاصة، لا يمكن القطع بصحته. فالواجب إيراد مثال واحد لأقوام اخترعوا لغة جديدة بغرض التدوين؛ ثم بعد ذلك دونوا بلغتهم الأصلية، فعملية اختراع الأكديين للغة السومرية لغرض التدوين عملية أصعب بكثير من عملية تدوين اللغة الأكدية نفسها.

حادي عشر. ورد: هناك عدد كبير من المفردات والمقاطع الرمزية السومرية وضعت لأول مرة في الفترة من منتصف الألف الثاني إلى منتصف الألف الأول قبل الميلاد. أي بعد الاختفاء المفترض للسومريين بأكثر من خمسة قرون[33].

والواقع أن نهاية الدور السياسي للأقوام لا يدل على عدم فاعليتهم وتأثيرهم الحضاري بعد ذلك. وخير مثال على ذلك الآراميين الذين لم يشكلوا دولة قوية مركزية في العراق القديم، لكنهم أثّروا في الدولة الاخمينية فيما بعد، حتى أصبحت لغتهم اللغة الرسمية للدولة الاخمينية، التي استخدمها قبلهم الاشوريون في بعض الكتابات التذكارية والرسائل، وصولاً إلى الدولة الكلدية[34].

ثاني عشر. من ضمن الآراء التي تنفي وجود السومريين: ان العصور البابلية هي الأهم في تاريخ اللغة السومرية، وأن النصوص السومرية التي وصلتنا من الألف الثاني قبل الميلاد ليست استنساخات من نصوص سومريه أقدم ،بل هي الفت ببراعة من قبل الكتبة الأكديين[35].

هنا يمكن القول: انتهى دور السومريين السياسي بسقوط سلالة أور الثالثة نحو (2004 ق.م)، لكن هذا لا يعني انتهاء دورهم الحضاري والثقافي، فقد استمر الكتبة السومريون بالتأليف، واستمرت السومرية لغة كنابه وتخاطب، والدليل على ذلك النصوص ثنائية اللغة التي وصلتنا، منها نص يتناول خلق الشمس والقمر[36]، الذي يعود إلى العصر البابلي الحديث.

ثالث عشر. رأي آخر يقول: إن النصوص المسمارية لا تذكر اسم السومريين كقوم[37]، وأن كلمة سومري حيث ترد فأنها تدل على معنى كاتب سومري، ولا تدل على (سومري القومية)[38]. فإنها تدل على اللغة السومرية، وليس العرق السومري، وبالتالي فلا وجود للسومريين كعرق في العراق القديم.

وهنا نتساءل: هل تم اكتشاف وقراءة كافة الألواح المسمارية حتى نستطيع الحكم على عدم وجو ذكر للسومريين كقوم؟ في وقت تعد اللغة أهم مقومات وجود الشعوب. التي حفظت الكيان الحضاري للأمم، حتى بعد تعرضهم للضعف السياسي. وبالتالي فوجود اللغة يدل على وجود المتكلمين بها.

رابع عشر. يرد من ضمن الآراء: أن من الصعوبة بمكان تطابق العقائد الدينية بين قومين مختلفين مهما كانت قوة الصلات بينهما[36]، وبالتالي يستبعد وجود السومريين كقوم لتطابق عقائدهم الدينية مع العقائد الدينية السومرية، وعليه فالموجودون هم الأكديون.

لكن من الثابت أن العقائد الدينية في أي زمن تتأثر بالبيئة التي يعيش فيها الأفراد، وبالتالي فان التشابه بالعقائد الدينية بين السومريين والأكديين مصدره البيئة الواحدة التي عاشوا فيها، علماً أن هذا التطابق بين السومريين والأكديين لم يكن تطابقاً كلياً فمثلاً نجد ان (نرام سين) قام بتدمير أقدس معبد سومري، وهو معبد الآلهة انليل المسمى (ايكور) في أقدس مدينة هي (نفر)[40]. كما اخذ الإله القومي للبابليين (الجزريين) مردوخ مكانة الإله القومي للسومريين (انليل)، في قصة الخليقة البابلية[41]. فلو كانت العقائد الدينية متطابقة لما توصلنا إلى هكذا تباينات.

خامس عشر. ورأي آخر في نفي وجود السومريين: انه من خصائص حضارة العراق القديم إن كل بناية دينية تشيد في العصور التاريخية يتوجب أن تحمل اسماً باللغة السومرية، على هذا الأساس فمن غير المعقول أن يشير الأكديون بإطلاق تسميات سومريه على الأبنية الدينية، بعد زوال الحكم السياسي للسومريين، لذلك فلا وجود للسومريين كقوم[41].

لكن ما المانع أن تكون اللغة السومرية لغة العراق القديم الدينية، وان السومريين بحكم أصالتهم في الحضارة وسبقهم للأكديين وضعوا قواعد الديانة العراقية القديمة وأسسها، وبالتالي استمرت لغتهم كلغة دينية في العراق القديم، حتى بعد زوال كيانهم السياسي.

من الآراء التي يسوقها الباحث في نفي وجود السومريين ، أن لقب ملك سومر وأكد الذي استعمله ملك الوركاء (اوتو ـ حيكال) أول مرة ليس دليلا على وجود قوم سومريين[47]. وبما ان مفردة سومر حيث ما وردت في النصوص المسمارية تدل على (لسان أو لغة) وليس على شعب او قوم[48]. فيتم بذلك نفي وجود السومريين.

لكن وللإجابة على هذا الرأي :هل من المنطقي أن يطلق ملك على نفسه لقب (ملك لغة سومر وارض أكد)؟ وما علاقة اللسان السومري بأرض وشعب أكد؟ لذا فالجواب المنطقي هو (ملك بلاد سومر وأكد). فبلاد سومر معروفة ومحددة بحسب الأثريين وهي تمتد من مدينة (نفر) إلى الخليج العربي جنوباً وأشهر مدنها الوركاء ولارسا وايسن وادب. وشروباك الى الشمال من بلاد سومر وأشهر مدنها أكد وكوثي وسبار وبابل وبورسيبا ومرد[49].

رأي آخر يسوقه الباحث في هذا المجال فيقول: أن اللغة الايبلائية المدونة (نسبة إلى مدينة ايبلا تل مروح شمال سوريا) يعود ما نسبته 80% من مفرداتها إلى اللغة السومرية، وبسبب بعد مدينة ايبلا جغرافياً عن بلاد سومر وعدم وجود سومريين فيها، وانتماء الايبلائيين إلى القبائل الجزرية، فان اللغة السومرية هي اختراع جزري (اكدي)[50].

ومرة أخرى نؤكد إن تشابه المفردات اللغوية بين الأقوام لا يدل بالضرورة على نفي وجود أحد هذه الأقوام، وتاريخ العراق القديم يؤكد أن العلاقات بين بلاد سومر وسوريا القديمة تعود إلى مراحل مبكرة جداً من التاريخ، وخير دليل على ذلك ما ورد في ملحمة كلكامش من رحلة سيد الوركاء نحو (2650 ق.م) نحو غابات الارز في جبال لبنان[51]. وعليه يكون التأثير اللغوي السومري على اللغة الايبلائية جاء بفعل التأثير الحضاري للسومريين، كونهم أصحاب حضارة أصيلة أخذت منهم المناطق المجاورة كبلاد عيلام وبلاد الأناضول وسوريا القديمة.

وقد ازداد التدوين باللغة الأكدية مع بروز دور الجزريين السياسي مع الدولة الأكدية (2371 - 2230 ق.م)[52]، فلماذا ازداد؟ وما مدى ارتباطه بالأكديين؟ فلو كانت اللغة السومرية لغة من اختراع الأكديين؛ لماذا تأخرت فجأة أمام اللغة الأكدية مع قيام الدولة الأكدية؟ ألا يدل ذلك على أن السومريين أصحاب النفوذ السياسي في العراق القديم قدموا لغتهم في الكتابة والتخاطب، ولكن مع تضاؤل نفوذهم السياسي، وانتقال السلطة إلى الأكديين تراجعت اللغة السومرية أمام اللغة الأكدية، كما هو حال بقية اللغات في الحالات المتشابهة، عليه لابد من وجود قومين مختلفين بلغتين مختلفتين هما السومريين والأكديين[53]. بل لماذا لم يرد نص صريح حول اختراع الأكديين للغة السومرية؟ مع العلم أن آلاف النصوص المسمارية وصلت إلينا. بل لماذا قام الكوتيون أثناء هجومهم على جنوبي العراق(نحو 2230ق.م) بالإبقاء على سلالة لكش الثانية تتمتع بما يشبه الحكم الذاتي، مع تحطيم وتخريب أكد بقسوة ووحشيه[54]. فلو كانت المدينتان تعودان إلى الأكديين، فلماذا هذا التمايز بالمعاملة؟ علماً إن الوركاء المدينة السومرية تمتعت بالميزة نفسها من الاستقلال والحكم الذاتي[55]، ألا يدل ذلك على وجود قومين مختلفين تعرضا لمعاملتين مختلفتين من الكوتيين.

بصورة عامة فهناك ملاحظات حول هوية السومريين كقوم نوردها كالآتي:

* إذا كان اختراع الكتابة السومرية اختراع أكدي، فلماذا لم نجد خلال العصر الشبيه بالكتابي (3500 ق.م)، نماذج لكتابات سومرية في مناطق الجزريين الأخرى، سواء الجزيرة العربية أو بلاد الشام؟ وهي مناطق تواجد فيها الجزريون منذ عصور قديمه. ولماذا توصل الجزريون في العراق القديم وحده لهذا الاختراع المهم، دون غيرهم من الجزريين؟

* إذا كان سكان العراق منذ أقدم العصور هم الجزريون فأين ذهب سكان العصر الحجري الحديث؟ وهم سكنة تل حلف وسامراء وتل الصوان. ولماذا لا يكونوا هم من نضّجوا الحضارة العراقية القديمة؟ وبالتالي كانت الكتابة المسمارية باللغة السومرية هي نتاجهم وليس نتاج الأكديين.

* هناك نظرية في اختراع الكتابة للباحثة الأمريكية (دينس شماندن)، ملخصها إن اختراع الكتابة يعود إلى الألف السابع قبل الميلاد، وتحديداً في قرية (جرمو) (قرب جمجمال في شمالي العراق)، وقد توصلت لذلك من خلال دراستها لقطع طينية صغيره بحجوم هندسية مختلفة دعيت (Tokens)[43]. وعليه فإن اختراع الكتابة يعود لأقوام ليسوا من الجزريين، وبحسب نظرية أصل السومريين التي تنص على أنهم سكان العصر الحجري الحديث الذين نزحوا من شمال العراق نحو جنوبه بعد اكتمال تشكل السهل الرسوبي، لذا لا يمكن إلغاء وجود السومريين كقوم، أو أن الكتابة السومرية هي اختراع أكدي، لأن اختراع الكتابة يعود إلى أقوام أقدم من الأكديين.

* ورد ذكر للنشاط التجاري للسومريين ومبادلاتهم التجارية مع مناطق شمال غربي إيران منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وتدل النصوص السومرية القديمة على ذلك مثل ملحمة كلكامش واينمركار وحاكم ارتا[44]، وان وجود أية مفردة في اللغة السومرية من لغات أخرى غيرها سواء كانت أكدية أو غيرها لا تعد دليلاً على عدم وجود السومريين[45]، بل يدل على نشاط سومري تجاري فاعل، وان اختلاطهم بأقوام أخرى أدى إلى دخول مفردات من لغات أخرى في لغتهم.

* إذا كان الهدف من وراء اختراع اللغة السومرية هو كتابة لغة أسهل بالتدوين من اللغة الأكدية، فلماذا استمر التدوين باللغة السومرية؟ بعد تمكن الأكديين التدوين بلغتهم الأم. وانتفاء الحاجة للغة السومرية، وبالتالي فلا نجد تفسيرا لاستمرار استعمال اللغة السومرية حتى أخريات الحضارة العراقية القديمة إلا لأنها لغة قوم كانوا أساس الحضارة في العراق القديم، ومنهم اقتبس الأكديون نظام الكتابة المسمارية.

لذا يمكن القول أنه بعد اكتمال تشكل السهل الرسوبي في الألف السادس قبل الميلاد نحو (5000 ق.م)[46]، نزحت أقوام شمالي العراق (أقوام العصر الحجري الحديث)، ويمكن أن يكون الفراتيون الأوائل والسومريون منهم، أفادوا من بدايات نظام التدوين الكتابي الذي بدأ في قرية (جرمو) بحسب نظرية (دنيس شماندن) سالفة الذكر، فتوصلوا إلى الكتابة المسمارية باللغة السومرية مع اقتباس مفردات من الفراتيين الأوائل والأقوام التي سكنت فيما بعد في السهل الرسوبي، أو نزحت إليه، مثل موجات الجزريين الأولى، الذين انتقلت إليهم الكتابة المسمارية فيما بعد، وأضافوا إليها. وقد يحتاج هذا إلى دليل، والدليل أن معظم الآراء المطروحة في تاريخ العراق القديم لاسيما التي تتعلق بأصل السومريين؛ هي فرضيات يحتمل بطلانها أو صحتها، فعلى سبيل المثال نورد نظرية الأستاذ (بهنام ابو الصوف) حول أصل السومريين وملخصها: إن الخليج العربي في العصور القديمة كان منطقة جافة مسكونا بأقوام منها السومريين، وبفعل

ذوبان الثلوج في أخريات العصور الجليدية، ارتفعت مياه المحيط الهندي واجتازت مضيق هرمز، واكتسحت منطقة الخليج العربي، فلم يجد السكان فيه مفراً سوى النزوح شمالاً إلى جنوبي العراق القديم، أو الالتجاء إلى المناطق العالية مثل جزر البحرين (دلمون)، وبالتالي فهو يفسر بذلك قصة الطوفان السومري، وقدسية (دلمون) عند السومريين. وعلى هذا الأساس، فكل الآراء المطروحة هي وجهات نظر، ليست حقائق قطعية. عليه فان التشكيك بوجود السومريين وجهة نظر تضاف لما سبقها.

الهوامش

1) نائل حنون، حقيقة السومريين، دمشق، دار الزمان، 2007، ص29.

2) جورج رو، العراق القديم، ترجمة: حسين علوان، بغداد، 1984، ص229.

3) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط2، بغداد، 1986م ، ج1، ص221.

4) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد، 1976م، ص221.

5) المصدر نفسه، ص220.

6) مؤيد سعيد "الفخار منذ عصر فجر السلالات حتى نهاية العصر البابلي القديم"، حضارة العراق، بغداد، 1985، ج3، ص37 - 39.

7) المصدر نفسه، ص40.

8) عادل ناجي "الأختام الاسطوانية"، حضارة العراق، بغداد، 1985، ج4، ص229.

9) سيتون لويد، أثار بلاد الرافدين، ترجمة: سامي سعيد الأحمد، بغداد، ب.ت، ص146.

10) عادل ناجي، الأختام الاسطوانية، ص229.

11) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص46.

12) المصدر نفسه، ص29.

13) جورج رو، العراق القديم، ص322.

14) فاضل عبد الواحد علي، "سلالة ايسن الثانية"، العراق في التاريخ، بغداد، 1983، ص108.

15) هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة: عامر سليمان، بغداد، 1979، ص69.

16) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص29.

17) احمد سوسة، الساميون والسومريون، بغداد، 1980، ص99.

18) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص39.

19) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص389.

20) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص30.

21) المصدر نفسه، ص28.

22) كريمر، السومريون، ترجمة: فيصل الوائلي، الكويت، 1976، ص474.

23) جورج رو، العراق القديم، ص253.

24) نائل حنون، المعجم المسماري، بغداد، 2001، ص28.

25) كريمر، السومريون، ص437.

26) نائل حنون، المعجم المسماري، ص29.

27) بهيجه خليل اسماعيل، "الكتابة"، حضارة العراق، ج1، بغداد، 1985، ص225.

28) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص31.

(29) Takur Bharati, Linguistics simplified semantics, India 2001, p. 29.

30) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص31.

31) المصدر نفسه، ص31.

32) المصدر نفسه، ص32.

33) المصدر نفسه، ص32.

34) سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي،، تاريخ إيران والأناضول القديم، بغداد، ص112.

35) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص34 - 35.

36) الكسندر هايدل، الخليقة البابلية، ترجمة: ثامر مهدي، بغداد، 2001، ص95.

37) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص36.

38) المصدر نفسه، ص36.

39) المصدر نفسه، ص40.

40) هاري ساكز، عظمة بابل، ص71.

41) الكسندر هايدل، الخليقة البابلية، ص15 - 16.

42) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص40.

43) نائل حنون، المعجم المسماري، ص19.

44) فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطوره وملحمة، بغداد، 2001، ص158.

45) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص41.

46) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص207 - 208.

47) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص24 - 25.

48) المصدر نفسه، ص36.

49) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم ، ص11 - 12.

(50) Jeremy Black and others, The literature of Ancient summer, Oxford University press, 2004, P.XV.

51) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص46.

52) نائل حنون، ملحمة كلكامش، دمشق، 2006، ص41.

53) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص38.

54) جورج رو، العراق القديم، ص223؛ كريمر، السومريون، ص88.

55) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص376.